المقتطف

الجزء الثاني من المجلد الثامن بعد المائة

١ فبراير سنة ١٩٤٦ — ٢٨ صفر سنة ١٣٦٥

حكمة تموت

وعلم يطويه التراب

سنوات في صحبة العالم أ . فيشر

عرفت الدكتور أ . فيشر شيخاً جاوز الخامسة والستين عندما أختير لعضوية « مجمع اللغة العربية الملكي »[1] ؛ وكان ذلك في شهر فبراير من سنة ١٩٣٤ . عرفته أشيب الشعر قصير القوام ممتلىء الجسم صحيح العقل قوي البنية ، إذا صافحك شد على يدك بما يدل عن قوة وثقة بالنفس ، حتى أن فقيدنا المرحوم الشيخ عبد العزيز البشري كان يتحاشى مصافحته لأنه على ما كان يقول ، رحمهما الله ، يخيل إليه أن دكتور فيشر سيأخذ يده فيذهب بها إلى غير رجعة .

كان في كلامه ثقل يجعل تفاهمك معه بلغة في اللغات الأوربية أهون عليك من التفاهم معه باللغة العربية التي أحبها وخدمها وأكب على درسها الليالي الطوال . ذلك بأن نطق العربية غير هين حتى على الذين هم منطلقة ألسنتهم من الفرنجة ، فما بالك بمن يثقل عليه إن يبين حتى بلغته الألمانية ؟

---

١ صدر بعد ذلك مرسوم سام بانضمام المجمع إلى فؤاد الأول ملك العربية »

لا أعرف من مافي دكتور فيشر شيئاً وإنما أعلم انه علم من أعلام المستشرقين ، نال من التشاريف في بلاده ما تمت عليه ألقاب كان يحملها ولا يفاخر بها ، كأنه يقول في لغة صامتة ، إن عملي أعظم من جميع التشاريف . ولم يعد عني به أن يكون تأييداً كاملاً لتلك اللغة الصامتة .

***

من الأغراض التي نص عليها مرسوم انشاء مجمع اللغة العربية الملكي ان يعمل المجمع على إنشاء معجم لغوي تاريخي يجمع شتات الألفاظ اللغوية أدبية وعلمية وشعرية ، ويثبتها بشواهدها ليكون ذلك ديواناً كاملاً للغة العرب . سار المجمع في هذا على خطا غيرنا من الأمم . فان الانجليز قد أنشأوا للفتهم معجماً كاملاً على القواعد التاريخية هو معجم « اكسفورد الجديد » واقعاً في ست وعشرين مجلد مطبوعة بقطع كبير وبأصغر مقاس في حروف المطابع ، ويقول القائمون على هذا المعجم انهم لو أرادوا أن يثبتوا جميع الشواهد التي كان من الواجب اثباتها ، لتضاعف ، حجم ذلك المعجم ثلاثة أضعاف أو أربعة . وتاريخ الانجليزية لا يتجاوز ستة قرون . فما بالك بمعجم يحاول أن يلم شتات العربية وتاريخها ١٥ قرناً من الزمان ، ومن آثارها ما هو مطبوع وما هو مخطوط ، بل ان هذه الآثار موزعة في رقعة من الأرض مساحتها ما بين بحر الظلمات غرباً وحدود الصين شرقاً ، وبحر الشمال في أوربا الى أواسط افريقية جنوباً ؟ عمل عاق تحار أمامه أقصى الارادات .

بدأ دكتور فيشر يعمل في وضع قواعد هذا المعجم منذ أن كان شاباً ، واستمر يعمل حتى اكتهل ثم شاب ، وقصر العمل في ذلك على ثلاثة القرون الأولى ، وربما تعداها الى أواسط القرن الرابع الهجري ، ليقتصر معجمه على عهد الفصاحة العربية ، وأملاً في أن يمتد به العمر ليرى ثمرة عمله ذاك . فلما انتخب عضواً في المجمع اللغوي المصري ، لاحت له فرصة فذة في أن يعهد اليه المجمع بنقل دواوينه الى مصر ويعمل فيها بنفسه ويقوم المجمع بنشر معجمه على أن يكون عملاً من الأعمال الخاصة يؤلفه صاحبه ويقوم على طبعه واصلاح تجاربه ويحمل مسئولية ذلك العمل كاملة ، ليكون هذا العمل أماماً يبني عليه المجمع عمله في اتمام المعجم اللغوي التاريخي من حيث وقف عمل دكتور فيشر الى عصرنا هذا .

ذلك على الأقل ما انتهى اليه رأي المجمع إذ ذاك في معجم فيشر ، وزاول ذلك الأستاذ عمله الشاق فكان يقضي في مصر سبعة أو ثمانية أشهر ، منكفئاً على العمل صباح مساء وفي عنفوان الشباب وارادة الفتوة ، وظل على ذلك حتى عاجلته الحرب العالمية وهو في ألمانيا فانقطعت أخباره وانقضى أجله فمات رحمه الله ، وقد ترك في مصر جزءاً عظيماً من جزازاته العلمية . أما البقية فلا يعلم عنها شيء ، وقد يحتمل أن تكون قد بددتها قنابل الطائرات أو دفنت في الأرض حيث كان يعلم صاحبها وحده وقد تظل هنالك حتى تتآكل وتفنى . حكمة تموت ، وعلم يطويه التراب .

من الذكريات التي تساورني دائماً موقف أستاذنا احمد لطفي السيد باشا ، وكان مديراً للجامعة المصرية . فقد علم ان المجمع يتوانى ويتقاعس عن تشجيع دكتور فيشر على نقل جزازاته والعمل على تأليف معجمه في مصر ، فأبى عليه حبه للعلم وحدبه على اللغة العربية إلاّ أن يتصل بالمجمع ليقول للمرحوم توفيق رفعت باشا رئيسه ، إذا رفض المجمع معجم فيشر فان الجامعة على استعداد لأن تتفق عليه وتعهد الطريق لنشره . فأصبح المجمع أمام أمر واقع . وفاز فيشر بتأييد المجمع ... مع التحفظات .

* * *

ذكرى ثانية . ففي جلسة من الجلسات التي أخذ المجمع يناقش فيها أمر التعقيب على عمل دكتور فيشر ، أدّت المناقشة الى تكليف لجنة المعجم بأن تضع قائمة بالكتب التي ينبغي أن يحصل عليها المجمع لتقرأ وتستخرج مفرداتها وتدوّن شواهدها ، وظلت اللجنة تعمل أسابيع حتى أتمت تلك القائمة ، وحدّدت جلسة للنظر فيها ، ومضى موظف من موظفي المجمع يتلو أسماء الكتب والاعضاء ينصتون حتى اذا عنّ لاحدهم اسم كتاب أضيف الى القائمة . كل هذا ودكتور فيشر صامت منصت حتى انتهى الأمر بموافقة المجمع على القائمة ، وكاد الأمر يتم على ذلك ، ويعلن الرئيس الانتقال الى غير ذلك من أعمال المجمع ، عندما وقف دكتور فيشر ، فاتجهت اليه الأنظار ، وراح يقول — « أعجب كيف ان هذه القائمة لم تضم القرآن الكريم وكتب الحديث الشريف » . وجلس في سكون أشبه بسكون الثقة

والاطمئنان، وصمت معه أعضاء المجمع برهة خيّل إليّ فيها اننا نكاد نسمع دبيب النمل.

***

ذكرى ثالثة. قابلته ذات صباح يغذ السير الى دار المجمع في عجلة، فصافحته وهنأته بسلامة الوصول، وكان قد عاد من ألمانيا بعد أن أوصى بارسال جوازاته الى مصر. فسألته: هل أحضرت أوراقك؟ فأطرق حتى خيّل إليّ أن نكبة وقعت به أو حدثاً ألمّ به، ثم حدّق فيّ وكأن جميع الدم الذي يتدفق في شرايينه قد تحوّل فجأة الى وجهه وأجابني بالانجليزية: انها الآن فوق أمواج البحر المتوسط. قال ذلك وهو يصرّ بأسنانه، كأنما يريد أن يقول اني أقامر بعمل خمسين سنة، فاذا يكون من أمري لو أن البحر ابتلع ذلك الجهد واستقرّ في أحشائه؟ ولو انه قرأ الغيب إذن لعلم ان في ذلك الغيب ما يبدّد أحلامه. جلست قدوة الله. تحيينا بالأمل وتحيتنا بالأمل.

ثم أخذ يناجي نفسه وأنا أسايره الى حجرة عمله فسمعته يقول: أريد أن أركز هذا العمل على أساس ثابت ان لم يتح لي أن أتمه قبل أن تمتد إليّ تلك اليد الخفية وتختطفني. لقد امتدّت اليه تلك اليد فانتزعته من عالم الاحياء، بل امتدت الى جوازاته التي كانت في حياته كأنها جزء في نفسه، فتركتها رهن الصناديق المقفلة، وبين أجزائها صدع عظيم هي أمواج البحر المتوسط. ومن ذا الذي يدري، فلعله قد عالج سكرات الموت وأمواج ذلك البحر ماثلة لخياله.

***

لئن لم يكن قد هيء لذلك الرجل الفذ أن يتم هذه الخدمة الممتازة للغة العرب، وهو عنها أجنبي، فلا أقل من يهب العالم العربي كله ومصر تقود خطاه، إلى اتمام ذلك العمل الخالد الذي يجمع شتات لغتنا المجيدة في مجلدات تضم إذا ما خرجت إلى الوجود، روح الأعصر الماضية، ويطبع على صفحة الوجود خلقاً جديداً هو خاتم العربية، تهب بعد الرقاد، وتتحرك بعد الهمود.

اسماعيل مظهر